توظيف (الشخصية والحدث) التراثيين الإسلاميين في ديوان:

المسافر في سنبلات الزمن

للدكتور صابر عبدالدايم

بقلم : عبدالله مهدي عبدالله
مصر

يذوب شاعرنا في تراثه الإسلامي، لذلك تفوح رائحته من أغلب قصائده، ويعتبر هذا التيار في شعرنا المعاصر أنقى التيارين وأكثرهما مشاركة في صنع ثقافة قومية إسلامية متطورة، لأن اللجوء للتراث الأجنبي يحمل غرابة تلك الموروثات على وجدان المتلقي العربي وذوقه. ولعل استرفاد شاعرنا معطياته من موروثه الإسلامي القديم والحديث بكافة مصادرهما ينجلي في ديوانه الذي بين أيدينا «المسافر في سنبلات الزمن»[1] حيث استقى شاعرنا معطيات شخصياته من تراثه الإسلامي وكذلك الأحداث.

توظيف الشخصية التراثية

هناك محاذير تجاه استخدام الشخصية التراثية لتكون معادلا فنيا لموقف معاصر، فإذا لم تكن هذه الشخصية تتميز تاريخيا عن سواها بما يجعلها وحدها قادرة فنيا للتعبير عن قضية معاصرة . كذلك إذا اكتفى الشاعر بتعليق همومه وقضاياه في عنق الشخصية التراثية فإن ذلك يمثل خطورة تتربص بالأداء وتذهب به[2].

ففي قصيدة (أسماء الثورة والعطاء والتحدي) ص ٢٢:٣٠ من الديوان يمعن شاعرنا في التقيد بالإطار التاريخي للشخصية، ولذلك ظلت معطياتها قابعة في حالة جمود لا تحمل تحولا مرنا لتصبح رمزا استلهاميا، فقد سجل شاعرنا مجموعة من المواقف التاريخية لأسماء وكأنه ينظم سيرتها الذاتية نحو : إفراز أبي جهل غيظه لطمة على وجنة أسماء لفشل مؤامرته فيقول (ص ٢٣، ٢٤) من الديوان :

وأبو جهل يرقص في عينيه الشيطان ويبغي الثأر
ماذا تفعل أسماء ؟
فلتحرق زيت المصباح وتطفئ كلّ الأنباء
وعلى وجنة أسماء
تهوي كف «أبي جهل» كالصخرة رعناء صماء
قتيل دماء
وترى وشم نجد ووفاء

ويواصل شاعرنا التزامه بالإطار التاريخي لأسماء فيسجل ذهابها ليلا إلى غار ثور حاملة في نطاقها الطعام والماء، وخداعها لجدها بجمعها حصوات ووضعها في الكوة ثم سحبها له وكان فاقد البصر – فلمس بيده ما وضع في الكوة فتستريح نفسه، وزواجها من الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ، وكفاحها في بيت الزوجية، ووقوفها المعنوي بجانب ابنها عبدالله بن الزبير في كفاحه

ضد البيت الأموي حتى استشهاده .

وعندما أراد شاعرنا إدخال خطوط من الواقع على لوحته التسجيلية كان مباشرا- فيقول في زواجها وعدم اهتمامها بما تهتم به الآن النساء (ص٢٧ من الديوان) :

هل سجنت معصمها بسلاسل ماسية
هل وضعت حول العنق الأسوار الذهبية
هل سقطت في وهم الإغراء وقالت
لا معبود سواي

رغم ذلك سيظل عالقا بتلك الشخصية التراثية ركام الموازنة والمقارنة والتأمل الذهني بين الماضي والحاضر .

أما في قصيدة (مشاهد من ملحمة العشق والبطولة «لمحمد بن القاسم»)(ص٣١، ٣٧ من الديوان) فيوظف الشاعر شخصية تراثية لها وجودها التراثي الحقيقي هي شخصية محمد بن القاسم في التعبير عن صمود إرادة الإنسان المسلم أمام قهر حكامه .... بالإضافة إلى زيف أرباب الكلمة في وطنه .

وقد وفق الشاعر في توظيفه لتلك الشخصية التراثية للإيحاء بأبعاد رؤيته الخاصة .

فمحمد بن القاسم، قائد شاب عربي مسلم فتح بلاد الهند في عهد الوليد بن عبدالملك وقتله صالح بن عبدالرحمن التميمي بأمر من سليمان بن عبدالملك في سجن واسط بالعراق لأنه ابن عم الحجاج الذي أيد الوليد في عزل أخيه سليمان من ولاية العهد، ومات في الرابعة والعشرين من عمره ... فشخصية محمد بن القاسم في القصيدة رمز لصمود الإرادة العربية المسلمة ..... أما شخصية سليمان بن عبدالملك في القصيدة فرمز للحاكم المتعصب الظالم ... فها هو فارسنا يبين مصادر تكوينه الجسدي والروحي فيقول (ص٣٢ من الديوان) :

من ثدي السيف تغذيت
وعلى صدر أمية غنيت
وبقلب الحجاج دخلت
ونزعت النقط السود السارقة الأضواء وسافرت
في شرياني كلمات المصحف تهدر نهرا من نار وضياء

د . صابر عبدالدايم

ولا يفوتنا الوقوف عند قوله : (ونزعت النقط السود السارقة الأضواء) وكأنه يود القول : بأنه في حياة الحجاج جوانب مضيئة أهملها المؤرخون مركزين على جوانب السواد فقط . .. ولا يخفى ما يحمله هذا المعنى من إدانة واضحة للمؤرخين.

وها هو شاعرنا يسمعنا صوت التاريخ شاهدا على نفسه ومقررا نقيضين من الموتى (موتى أحياء) وهم أصحاب المبادئ والذين يستشهدون من أجلها، و (أحياء موتى)، وهم المنافقون المزيفون، ويحمل هذا المنحنى التراثي إيحاء بزيف الواقع ومرضه ... يقول شاعرنا (ص ٣٥ من الديوان) :

وسليمان كل الأشياء مسخرة لهواه الموتور
حتى التاريخ ضمير الثوار – الرأي ...
.... لديه مفاوز موت ورياض حياة !!!!
والصم – البكم – العمي . كبار مشيريه وسمار الليل !!!
والموت هو الظل الحاكم
من أين يمر الموتى الأحياء ؟
من هذا المنعطف المحموم المتمرد
(تحل دماء المسلمين لديهم
ويحرم طلع النخلة المتهدل)
والأحياء الموتى من شرفة هذا البيت يطلون
(وبدا الصباح كأن غرته
وجه الخليفة حين يمتدح)
والسمار ينوحون : الحجاج الغائب موجود ...
.... وسليمان يهوى

ولعلك تلحظ تضمين شاعرنا لهذين البيتين التراثيين :

بيت الكميت بن زيد الأسدي :

(تحل دماء المسلمين لديهم
ويحرم طلع النخلة المتهدل)

وهذا بيت جرير :

(وبدا الصباح كأن غرته
وجه الخليفة حين يمتدح)

وقد استعان شاعرنا وقام بتضمين هذين البيتين لتوحد الكامل والتام بين رؤية شاعرنا وبين تضمينه لهما

.. ولا يخفى الإيحاء المتولد من التضمين بزيف الواقع وتفشي النفاق فيه ...

وفي قصيدة (إشراقات من سفر التكوين والنبوءة) (ص ١٤ : ١٨ من الديوان) هربت شخصية (كليم الله موسى) - عليه السلام - بتاريخها حيث لم يستطع شاعرنا الاستجابة لثرائها الفني وبعدها التاريخي وبإمكاناتها الرامزة وقدرتها الإسقاطية باستثناء الجزء الذي يتحاور فيه موسى والخضر - عليهما السلام - فقد وفق شاعرنا في هذا الجزء في تحميل المنحنى التراثي بالدلالات في توازن فني بين القدرة والفعل بحيث تمازج الصوتان ولم يعل أحدهما على الآخر .

ولنقرأ تلك الآيات القرآنية قبل قراءتنا للقصيدة ....

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ (سورة طه).

ونعرج إلى القصيدة وقول شاعرنا (ص ١٤ : ١٥ من الديوان) :

النار تمد شراع رجاء
موسى في قلب الظلمة يعدو
فالنار - الوعد - نجاة وسماء
كانت في البدء ولا زالت في القلب ..
.... تصد وتحرق كل الأفناء
والنار تنادي
(اخلع نعليك)
إنك في أقدس واد

وهاهو شاعرنا يفرز خلاصة تجاربه في الحياة للإنسان المعاصر أثناء تحاور موسى والخضر - عليهما السلام) فيقول محاورا الإنسان المعاصر (ص ١٧ من الديوان) :

زود نفسك للرحلة ... أحكم سفنك فالبحر عميق
والزاد ؟ وأين ؟ وكيف؟
النهر الراكد لا يعرف مجراه ولا أين يصب
جدد ذاتك - واعرف كيف يقود خطاك إلى الحق الرب

وفي قصيدة (إيقاع الزمن القادم) ص ١٠ : ١٣ من الديوان) يوظف الشاعر شخصية تراثية لها وجودها التراثي الحقيقي هي شخصية (نبي الله) يوسف عليه السلام، في التعبير عن مكابدات وطنه بفعل الحاقدين والخونة - رغم ذلك - ظل وسيظل الوطن صامدا .

وقد وفق الشاعر في توظيفه لمعطيات تلك الشخصية للإيحاء بأبعاد رؤيته الخاصة ... فنبي الله يوسف [٣] - عليه السلام - (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم) اشتعلت نيران الحقد والغيرة في نخاع إخوته لحب أبيه الشديد له فشكلوا مخططا للتخلص منه .... انتهى برميه في قاع الجب وخداع أبيه بدم كاذب على قميصه تدليلا على أن ذئبا غافلهم وأكله ...

وتتوالى أحداث قصته وقد اكتظت بالحاقدين والخونة... وفي نهايتها تنجلي الحقيقة .. ويعترف الظالمون بظلمهم ليوسف - عليه السلام - ويحبه ملك مصر ويوليه شؤون البلاد الاقتصادية .

شاعرنا عاشق لوطنه وقد ثبت فيه روح العشق رياحين الصفاء والنماء والأمل فيقول (ص ١٠ من الديوان) :

صوتك ينشلني من قاع الجب
يحملني فوق جواد الريح (لواق الواق)

يسقيني صوت الحق الساري فوق جناح الرؤيا
يرفض أن تتشرنق في أفراح اللقيا ...
.... أصداء الكذب السائل من ثوبي المصبوغ
... بزيف دماء الذئب .

رغم مكابدات الوطن المتولدة من سهام الخيانة وجمرات الحقد ومن سيبقى الوطن نهرا متدفقا فضفاضا يشحن روح الصمود فينا ويحث بلابل الأمل على التغريد دوما (ص ١٣ من الديوان) .

لم يبق سوى صوتك... ينشلني من قاع الجب
يسقيني صوت الحق الساري فوق جناح الرؤيا
يجتاح كل سدود الغيب
يفتح كل خزائن هذا العالم بين يدي

توظيف الحدث التراثي

«أحيانا يوظف الشاعر حدثا أو مجموعة من الأحداث التراثية التي يحس ثمة لونا من التراسل الشعري بينها وبين رؤيته المعاصرة، ومن ثم فإنه يوظف هذا الحدث أوالأحداث رمزا للإيحاء بأبعاد هذه الرؤية»(٤).

وفي قصيدة (الفزع الأكبر، ص ٣٨ : ٤٣ من الديوان) يوظف الشاعر مجموعة من الأحداث التراثية والتي ترسم لونا من التراسل الشعري بينها وبين رؤيته المعاصرة .

فلحظة قيام الساعة، والطوفان، وسلب عصا موسى قدرتها الإعجازية، وسفينة نوح لا ترى ميناءها كل ذلك وظفه الشاعر إيحاء بهوان الواقع العربي والإسلامي ....

ومن اللافت للنظر توظيف شاعرنا لبعض الأحداث عكسيا وذلك بتوظيفها في التعبير عن نقيض مدلولها وذلك للدلالة على هوان الواقع ومرضه فيقول (ص ٤١ من الديوان) :

... وتلقى في الإعصار نبوءات الصديق
فيصير الماء لهيبا ودماء
وعصا موسى لا تضرب أحجار الظلم ولا تغدو جسرا للشرفاء !!
وسفينة نوح لا ترسو فوق الجودي ..
... ولا تبصر وجه الميناء !

ويكف شاعرنا عما يتمناه لأمته الإسلامية فيقول :

وتشرق بالألحان بعين الأقصى المهجور
وبغيض الماء ...
... ويقضى الأمر ..
... ويلتئم القدس المشطور
والسلم ترفرف في الآفاق ذراعاه ...
تلوح بالسيف المنصور

وفي قصيدة (المنفى داخل الوطن، ص ٦٩ : ٧٤ من الديوان) يحاول شاعرنا أن يسلبنا من الواقع عن طريق الإيهام لكي يرتد بنا إلى التجربة التاريخية فنعيش واقعها نتعرف على الشخوص ونعاين الأحداث ونلم بكل التفصيلات، وقد أمعن شاعرنا في التقيد بالإطار التاريخي في إطار وحدة الزمان والمكان التاريخيين .

فها هو .. شاعرنا يصوب آلاته التصويرية اللفظية إلى وقفة عابدين ليلتقط صورة سطحية لها فيقول (ص ٦٩ من الديوان) :

عنوان كتابي الأول «وقفة عابدين»
حيث الصنم الواقف، والكلمات رصاص يقتل أنفاسه
«لمن يخلقنا الله عقارا»
«لن نستعبد بعد اليوم»

ويخلص شاعرنا في نهاية قصيدته إلى أن يخطب قائلا (ص ٧٤ من الديوان) :

سنحارب من أجل الحرية
سنكون فداء للوطنية
نصرخ في التل ..
وعند رشيد نقسم..
نقسم....؟؟؟ ثم نعيد

ونخلص من جولتنا عن التراث في ديوان«المسافر في سنبلات الزمن» إلى التسليم بتمكن شاعرنا من تقنيات توظيف التراث في القصيدة الحديثة من حيث الاتحاد الكامل كما في قصيدة (أسماء الثورة والعطاء والتحدي)، والاتحاد والانفصال في آن واحد في قصيدة (مشاهد من ملحمة العشق والبطولة «لمحمد بن القاسم») . ■

الهوامش :

(١) المسافر في سنبلات الزمن، ديوان شعر للشاعر الدكتور صابر عبدالدايم، طبع على نفقته، عام ١٩٨٣م .

(٢) لغة الشعر، قراءة في الشعر العربي المعاصر، الدكتور رجاء عيد، صدر عن منشأة المعارف بالإسكندرية، ص٢١٢ .

(٣) قصص الأنبياء، لابن كثير، ط ١، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م، دار عمر بن الخطاب للطباعة والنشر بالإسكندرية، من ص ٢٢٩ : ص ٢٦٦ .

(٤) من فصول (مجلة النقد الأدبي) تصدر عن الهيئة العامة للكتاب، المجلد الأول، العدد الأول، أكتوبر ١٩٨٠ م، دراسة عن توظيف التراث العربي في شعرنا المعاصر، للدكتور علي عشري زايد، ص ٢٠٩